إشكالية البحث عن المعنى
في حكاية "حي بن يقظان" لابن طفيل

الطالب الباحث: فؤاد هنو
محمد
المغرب

المحاور

مقدمات نظرية

1- في سياق نص:" حي بن يقظان " لابن طفيل.

1-1- معالم من شخصية رجل عظيم

1-2- سياق غني بالنقاش والأسئلة "لحظة مفصلية في تاريخ البشرية"

2- مقال الحكاية فيما بين الفكر واللغة من اتصال.

2-1محاولة فصل منهجي

2-1-1- سياق الفكر والطبيعة.

2-1-2- سياق الاجتماع واللغة.

2-2- محاولة إعادة تركيب

2-2-1- سياقان متجاوران ورحلة البحث عن المعنى "الفكر يتفاعل مع الطبيعة و اللغة عقد زواج.

2-2-2- تجربة اقناع بخطاب ثقافي واستحالة مرتبطة باختلاف السياقات الثقافية.

2-3- جدلية الفكر واللغة

2-3-1- الفكر ملاذ السؤال و الاختلاف، والطبيعة فضاء خصب للتفكر.

2-3-2- اللغة والفكر في وضع تكاملي.

خلاصات للتفكير.

مقدمات نظرية

لقد كانت العلاقة (فكر/لغة) دوما موضوع سجال بين الدارسين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم. مع تطور الدرس الفلسفي واللسانيات المعاصرة [1]أعادت بعض التصورات رسم ملامح علاقة أخرى ممكنة بين الفكر واللغة والتي كادت تتحول مع السجال الى ثنائية. هذا النقاش الابستيمي التقطه فلاسفة اللغة و استثمروه في تطوير الدرس اللغوي بحيث لم تعد اللغة مجالا ثانويا ومناسباتيا للدرس الفلسفي بل اصبحت مع اوستين وسورل ومن خلالهما المدرسة التحليلية و باقي المدارس رغم حدود انتشارها مقارنة بالأولى في قلب اهتمام الدرس الفلسفي، لتستعيد اللغة الاهتمام اللازم و يتم الانتقال من الدراسات الفلسفية للغة الى الفلسفة اللغوية فانصهر المبحثان بحثا عن تجاوزات ابستيمية استفاد منهما التطور العلمي عموما و الدرس اللساني على وجه الخصوص وكانت من أهم الإنجازات الابستيمية التي تم تحقيقها اننا انتقلنا مع اوستين و سورل الى لا جدوى و لا عقلانية بل لا واقعية الفصل بين القول و الفعل و هيمنة المقولة الفارقة في أفعال التخاطب: "أن تقول معناه أنك تفعل".

ننتقل في تحليل الخطاب عموما والتحليل السيميائي على وجه الخصوص من هيمنة وضيق أفق النموذج اللساني إلى رحابة وتعدد النماذج التعبيرية، فالتعبيري أوسع وأكبر من أن تحيط به اللغة، واللغة رغم كونها شكلا تجريديا راقيا كما عبر عن ذلك مؤسس السيميولوجيا حسب التقليد الأوروبي فإنها عاجزة أن تستوعب هذا الفيض من التعبيرات حيث أكثرها غير لفظي فلا معنى لهيمنة الجزء على الكل فهذا أمر حسم فيه سوسير في بداية القرن العشرين حيث يقول: "يمكن إذن أن نتصور علما يدرس حياة العلامات في صلب الحياة الاجتماعية، وسيشكل جزءا من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام، سنسميه سيميولوجيا (عن الكلمة الإغريقية "سيميون " أي" علامة ") ستعلمنا بماذا تتعلق العلامات وما هي القوانين التي تنظمها. ومادامت لا توجد بعد، لا يمكننا أن نقول ماذا يمكن أن تكون، لكن من حقها الوجود ومكانها محدد مسبقا. اللسانيات ليست إلا قسما من هذا العلم العام، و القوانين التي ستكتشفها السيميولوجيا ستكون قابلة للتطبيق على اللسانيات، وهكذا ستجد هذه الأخيرة نفسها مرتبطة بمجال جد محدد في مجموع الأفعال الإنسانية "وهنا نستحضر مرة أخرى قول سوسير من زمن بعيد نسبيا بالمعنى المعرفي: "اللغة نسق من العلامات تعبر عن أفكار، و انطلاقا من ذلك فهي فقط أهم الأنساق مقارنة بالكتابة ولغة الصم البكم و الطقوس الرمزية و أشكال الاحترام و الرموز العسكرية ..الخ"[2] كما حسم فيه اشتغال بارت على الاسطورة في كتابه "علم الأساطير "حيث كشف قدرتها التعبيرية، و لفهم الأسطورة لا يكفي أن تتعلم لغة الحكي، بل لابد من سفر بيثقافي في الزمن و المكان لاستلهام السياق الذي أنتج هذا أو ذاك التعبير و لعل اختلاف قراءتنا للأساطير و الحكايات دليل على ذلك، فمن جهة هناك اختلاف التأويل، و من جهة أخرى هناك ارتباط الأشكال التعبيرية بسياقات ثقافية يتداخل فيها الفني بالعلمي بالديني...

إن الحديث عن التعبيري أفقا للسيميائيات بالإضافة لتحرير الدرس السيميائي سيفيد اللساني أيضا. ألم تكن التداوليات بالنسبة للبعض وبنفس المنطق أشبه بالقمامة بدعوى أنها تجمع كل شيء ينفلت للخطاب اللساني؟ وتأكد بأنه لولاها لما تعدت اللسانيات حدود الجملة وفي أقصى الحدود بلاغة الجملة أو المثال كما يسميها عبد السلام اسماعيلي علوي[3]. كانت البلاغة نفسها شكلا تعبيريا مرفوضا في الثقافات الدينية بدعوى أنها تخالف الحقيقة لكن لولا انزياح الشاعر والأديب والرسام والمصور ومنتج السينما لما تطورت التعبيرات ولما تطور الدرس اللساني والسيميائي على السواء.

أريد من خلال هذا المداخلة ملامسة العلاقة أو العلامة (فكر/لغة) من خلال قراءة لنص أسال الكثير من المداد وفي الكثير من اللغات والثقافات، وقراءتي وبحكم ولعي بالأدب وبحكم اهتمامي بتحليل الخطاب هي محاولة لتطبيق مقاربة سيميولسانية على جنس أدبي ذو حمولة فلسفية. وهو على المستوى الذاتي أعتبره تعبيرا عن إحالة تذكيرية استوقفتني وأنا في بدايات عهدي بالقراءة التي تركت أثرا تفكريا لازمني لحدود هذه اللحظة، وإذ لا أدعي أني بلغت منتهى الفهم وأنا المقتنع بانفتاح النص ولانهائية التأويل، وهنا تلتقي عقيدة الابداع وتحليل الخطاب وهي أيضا دعوة للمختصين للحفر في ملامح هذه العلاقة ذات راهنية في مؤلف كان ولازال إشكاليا ولعل العودة لهذا المؤلف من طرف باحثين من مختلف الثقافات والمرجعيات دليل على أهميته التاريخية والفكرية.

في إحدى مقالات المجلة الفلسفية Philosophie magazine يعود فريديريك مانزيني Frédéric Manzini المختص في القرن السابع عشر وخاصة في فلسفة سبينوزا Spinosa بتقديم مؤلف "حي بن يقظان" من خلال ترجمته التي حملت عناوين مختلفة" في صفحة "كتاب اليوم" [4] مؤكدا على الطابع الفلسفي للحكاية وكذا الفكر الصوفي الذي ارتبط بمرحلة تواجد ابن طفيل بالأندلس ونظرا لغزارة القضايا وإشكاليتها يخلص الكاتب لانفتاح الكتاب على التأويل[5].

على ماذا أريد التدليل؟ أو على الأصح أي انطباع حولته بأدواتي المتاحة حاليا إلى تجريد بمعنى من المعاني عن هذه العلاقة الأكيدة و المريبة والعصية الإمساك؟ هدفي الذاتي هو الاقتراب منها وعرضها عساني أنسج بعض المعاني التي استطعت أن ألتقطها و هي نتيجة سيرورة علاقة ربطتني بهذا العمل الذي بدأ في تمثلي عملا خرافيا أو أسطوريا ليتحول عبر مراحل إلى تصور أو رؤية للعالم بلغة جورج لوكاتش وقد عبر عن ذلك محمود أمين العالم بكلمات أخرى قائلا:

«وإنما يقدّم نسقًا فلسفيًّا كاملًا يكاد يعالج فيه أهم القضايا الفلسفية في الفكر العربي الإسلامي» [6] وأما الهدف الموضوعي لهذه المداخلة هو النظر لرؤية متعددة الابعاد للعلاقة (فكر/لغة) وخاصة من خلال الجانب الايحائي والرمزي في مؤلف "حي بن يقظان " لابن طفيل. الحديث عن الايحائي والرمزي هو مدخل للدفاع عن مشروعية المقاربة السيميولسانية التي اخترت تجريبها في هذه القراءة على اعتبار أن الكثير من القضايا الواردة في المؤلف لم ترد تقريرا ولا تصريحا لعدة أسباب أهمها طبيعة العمل الذي يأخذ الطابع الأدبي الحكائي من بين تمظهراته، وطبيعة الموضوع الذي يظل إشكاليا منذ كتابة النص وإلى حدود الآن. لماذا المقاربة السيميولسانية؟ لعدة أسباب أهمها مرتكزاتها كما حددها مؤسسها باتريك شارودو Patrick Charaudeau في صيغة الأبعاد الثلاثة للخطاب وهي البعد المعرفي في العلاقة بتصورنا للعالم والبعد الاجتماعي والنفسي–الاجتماعي والبعد السيميائي بمعناه العام أي مجموع المشاكل التي تطرح في علاقة بناء المعنى ببناء الأشكال[7].

فالرؤية للعالم في الكتاب واردة كما أكدت ذلك سابقا وهي مؤكدة في أغلب الدراسات العربية والأجنبية والبعد الاجتماعي والنفسي الاجتماعي واردين وسأعمل على الكشف عن بعض مظاهرهما، أما البعد السيميائي في حده الأدنى المتعلق بالمعنى فهو وارد في كل النصوص والأنساق الدالة بتعبير رولان بارت Roland Barthes حيث يقول: "لقد رأينا أن التفريق بين اللغة و الكلام يشكل الأساس في اللسانيات لكنه سيكون من العبث اقتراح هذا التفريق لأنساق أشياء أو صور أو سلوكات و التي لم تدرس بعد من وجهة نظر دلالية "[8]

وهو وارد بشكل أكثر كثافة في نص أو خطاب من صفاته الأساسية هي الأدبية.

حقا، الحيز الذي غطى هذا الإشكال أي علاقة الفكر باللغة صغير قياسا لحجم الرواية (7 صفحات من 55 صفحة حسب الطبعة التي اشتغلت عليها)، لكن ذلك لم يمنعني من المغامرة في البحث من داخل هذه التفاصيل القليلة عن ملامح المعنى الكبير في الرحلة المكوكية "من و إلى بين الطبيعة و الثقافة "للكشف عن بعض العناصر المحددة لطبيعة العلاقة بين الفكر و اللغة ولي عبرة في المؤلف نفسه والذي استطاع صاحبه في حيز وجيز وبكلمات قليلة أن يحيل على قضايا وإشكالات كثيرة من مجالات متعددة (فيزياء، فلسفة، بيولوجيا وطب..) وهذا ما يؤكد على الطابع الموسوعي للرجل الذي استعمل سجلات متنوعة ومتعددة في قالب أدبي احتل فيه الرمزي والايحائي مكانة معتبرة وهذا الأمر يحيلني مرة أخرى على مقال لرولان بارط وإن كان المؤلف سابق بكثير حيث يقول:

"..بينما المستقبل سيكون للسانيات الايحائية لأن المجتمع، و انطلاقا من النسق الأول الذي يوفره له اللسان الانساني، يطور أنساقا ذات معاني ثانية و يتعرض هذا الوضع المعقلن لعملية إظهار وإخفاء بحيث يقترب بشكل كبير من أنثروبولوجيا بشرية حقيقية "[9]

فما معنى أن يبدأ المؤلف بروايتين مختلفتين في أصل حي بن يقظان؟ إذا لم يكن يريد أن يهمس أن الأصل هو الاختلاف في الكثير من الأشياء وعلى رأسهما منظومة الأخلاق وتفسيرنا للعالم وأصل الوجود. ما معنى أن يختار المؤلف ضمن برنامجه السردي أن يلقي ببطل القصة في جزيرة معزولة حيث لا أثر لبني البشر؟ أهو تمرين يحاكي انتقال الانسان من الطبيعة إلى الثقافة بالإضافة إلى تمارين أخرى؟ إذا سلمنا بذلك

وفي النص ما يكفي من العلامات على صحة الفرضية هل عملية الانتقال تجربة فردية؟ لقد بدأت فعلا كذلك في الحكاية لكن لا دليل لدينا أن الأمر دوما كذلك اللهم إذا استحضرنا البعدين الفلسفي والروحي وهما أيضا حاضرين في هذا النص المنفتح على عدة مباحث ومجالات انفتاح كاتبه وموسوعيته. وضعية الانطلاق في الحكاية من خلال برنامجها السردي يحيلني أيضا على فكرة العود الأبدي عند فريديريك نيتشه Friedrich و Nietzsche وخاصة من خلال كتابه "هكذا تكلم زارادوشت"[10] حيث يطرح المؤلف الكثير من القضايا المرتبطة بالفكر والفلسفة برؤية مختلفة تركز على أهمية الذات وتطورها من خلال العودة لنقط قوة الذات للانتصار على التمثلات الجاهزة والمكبلة أحيانا، وانتصارا لحرية الفهم والتأويل، نجد عنوانا فرعيا يعتبر الكتاب للجميع وللا أحد، معناه أن الرجل لا يعطي دروسا لأحد لكنه يدعو لتحرير الفكر والعقل والإقبال على تجربة وجودية وثورية ولعل لغة الكتاب الشعرية بل بنيته الشعرية دليل على ذلك.

1_ في سياق نص " حي بن يقظان " لابن طفيل

1-1- معالم من شخصية رجل عظيم

هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، ولد بمدينة (وادي آش) ضواحي غرناطة عرف وأجاد في الفلسفة والرياضيات والطب وغيرها من علوم عصره، عصر النبوغ والموسوعية، بل أكد تأثره بفلاسفة كبار من مثيل أرسطو وأفلاطون وابن باجة الذي يعود له الفضل في إدخال الفلسفة إلى بلاد الأندلس. ونظرا لأهمية مساره ونفاذ حكمته كان صديقا لنخب عصره وعلى رأسهم الفيلسوف ابن رشد بل كانت استشاراته مطلوبة. عاش ابن طفيل في مرحلة عرفت بازدهار الحضارة العربية الاسلامية والتي تسميها بعض الدراسات الغربية بالحضارة الشرقية وإن كان المفهوم يحتاج للكثير من التدقيق كما عرفت المرحلة أيضا على المستوى الداخلي ذروة الصراع بين أهل النقل استمرارية مذهب الأشاعرة أو الظاهرية و أهل العقل استمرارية مذهب المعتزلة أو الباطنية و لأن الذي ساد هو مذهب الأغلبية أو على الأصح الذي انتصرت إليه السياسة هو مذهب الظاهرية فإن ذلك يفسر جزئيا قلة ما وصلنا من كتابات العقلانيين و المتصوفة فهذا الفقيه ابن تيمية أحد أركان المذهب الظاهري يصدر فتواه و غيرها كثير:

" وهذا في الجملة قول المتفلسفة والباطنية كالملاحدة الإسماعيلية وأصحاب رسائل إخوان الصفاء والفارابي وابن سينا والسهروردي المقتول وابن رشد الحفيد وملاحدة الصوفية الخارجين عن طريقة المشايخ المتقدمين من أهل الكتاب والسنة ابن عربي وابن سبعين وابن الطفيل صاحب رسالة حي بن يقظان وخلق كثير غير هؤلاء "[11]

1-2-سياق غني بالنقاش والأسئلة "لحظة مفصلية في تاريخ البشرية"

إن انخراط ابن طفيل في نقاش عصره كان فعالا و مؤثرا و قد وردت في المؤلف نصوص موازية تؤكد انتماء الرجل و موقعه فهو من جهة يصرح أن عمله يندرج في رؤيته العامة للوجود (الطبيعة، الثقافة، النشأة والارتقاء أو التطور.. ومن جهة أخرى يعلن منهجه وهو منهج الباطنية و لغة الباطنية... حيث نقرأ

" أسأل إخواني الواقفين على هذا الكلام أن يقبلوا عذري فيما تساهلت في تبيينه وتسامحت في تثبيته فلم أفعل ذلك إلا لأني تسنَّمت شواهق يزلُّ الطرف عن مرآها، وأردت تقريب الكلام فيها على وجه الترغيب والتشويق في دخول الطريق.

وأسأل الله التجاوز والعفو، وأن يوردنا من المعرفة به الصفو، إنه منعم كريم."

حيث نفهم أن الحديث عن "إخواني الواقفين على هذا الكلام هو دليل على كون المكتوب مطلوب ومنتظر, واستعمال معجم من مثيل (تسنمت، شواهق، يزل، مرآها،) إحالة على مذهب لا يعطي كثير الاهتمام لظواهر وأعراض الأشياء وذكر (الترغيب و التشويق) قول يمكن الاستدلال به على جنس النص والحديث عن دخول الطريق في سياقه لا يمكن أن يكون محمولا على التصريح والتقرير، فلا معنى للطريق الذي

يعرفه كل الناس في حده المعجمي أن يكون قصد عالم ومتصوف مثل ابن طفيل وقربه من معنى الطريقة أو المنهج بلغة العلوم الحديثة أقرب للقصد باستحضار السياقين العام والمحلي بلغة التداوليات وتحليل الخطاب,

جدير بالذكر أن الحكاية كتبت من طرف مؤلفين مختلفين في أزمنة مختلفة مما يؤكد طابعها الإشكالي، فقد كتبها ابن سينا الفيلسوف والطبيب الموسوعي الفارسي والذي ينتمي جغرافيا لبلاد فارس سابقا وكتبت من طرف المتصوف الإشراقي السهروردي من نفس الجغرافيا البشرية وكتبها كذلك ابن نفيس الشامي الدمشقي الذي قضى نحبه في القاهرة وها هي نفس الحكاية وبتفاصيل مختلفة تكتب من طرف ابن طفيل الموسوعي العربي ذو الأصول المغاربية والشاهد على مرحلة من مراحل النبوغ في بعده الكوني و ليس صدفة ان يلتقوا في الموضوع و الكثير من تفاصيله وقد عبر عن ذلك حسن حنفي في تقديمه للكتاب قائلا:

"لا يوجد نص فلسفي كتب أربع مرات من أربعة فلاسفة مختلفين وأحيانا مع تغيير العناوين مع بقاء المضمون مثل قصة حي بن يقظان، فهي مع أصلها اليوناني سلامان وأبسال قصة رمزية لابن سينا، ولابن طفيل، وللسهروردي، وابن النفيس. والموضوع واحد.. "[12].

وفي رمزية العنوان يضيف حسن حنفي " وللعنوان دلالة رمزية، حي بن يقظان. فالحياة بنت اليقظة. اليقظة الأصل، والحياة الفرع وليس العكس، الحياة الأصل واليقظة الفرع مع أنه الأكثر بداهة. فالإنسان يحيا أولا ثم ينبثق الوعي من خلال الحياة.."[13]

الأرجح أنهم ينتمون لمشروع كبير هو الانتصار لحرية العقل والترفع عن تفاصيل الادراك السطحي السائد وقد انتهوا جميعهم إلى الطريق الثالث بين العقل والنقل وهو طريق التصوف والكشف وحتى لما قرروا ذلك لم يسلموا من التنكيل والتكفير ولم يتصالح العرب مع هذ المكون من ثقافته إلا بعد زمن طويل وتزامن ذلك مع دراسات أقامها غير العرب عن هؤلاء المغضوب عليهم من قبل العامة التابعة للتفسير السائد. الحكاية ترجمت لعدة لغات بل الكثير من الدارسين العرب والغربيين يتحدثون عن استفادة عصر الأنوار من هذه الإشراقات وخاصة في المجال التربوي مع جون جاك روسو رائد المدرسة الطبيعية، هذا الأخير يعتبر أن التعلم الفعال يجب أن يتم في سياقات مرتبطة بالحياة اليومية للمتعلمين بحيث يتناول مشاكلهم وقضاياهم وحاجاتهم من المعرفة.

2-مقال الحكاية فيما بين الفكر واللغة من اتصال

2-1-محاولة فصل منهجي بين الفكر واللغة

2-1-1- سياق الفكر و الطبيعة

تبدأ الحكاية بإشكال النشأة و يورد السارد ابن طفيل روايتين إحداهما تنتصر لكون حي بن يقظان من أب و أم تخلت عنه قصرا خوفا من عقاب على خطيئة الارتباط بدون إذن المؤسسة الاجتماعية التي يمثلها خال حي بن يقظان حسب منطوق الحكاية وتتحدث الأخرى عن كونه نشأ في جزيرة من تراب والفتى تبعا لذلك ولد دون أب ولا أم كيفما كان ترجيح أو تأويل القارئ[14] فالبطل و جد نفسه في عالم الطبيعة و الحيوانات و فتح عينيه على الظبية التي تكفلت برعايته، بالنسبة له كانت تجربة حياة تداخل فيها العاطفي بالفكري وعلى ذكر العاطفي أعيد الإحالة على بعد من أبعاد المقاربة السيميولسانية عند باتريك شارودو سبق الحديث عنها وهو البعد الاجتماعي والنفسي الاجتماعي، فاستثمرها لاكتشاف الكثير من اسرار الطبيعة في عملية ممنهجة تضمنت علم الحياة و الأرض و الفيزياء لتمتد الى الجانب الروحي الديني دون وساطة رسالة والحكاية في هذا السياق تعيد طرح السؤال حول طبيعة المعرفة ومصدرها وأدواتها سواء تعلق الأمر بالمعرفة العلمية أو الروحية ولا يخفى انتصار المؤلف أو السارد بمعجم السرديات للغة الكشف و طريقة التأمل والارتقاء والتجرد عن التفاصيل التي تجعل من يركض وراءها يظل حبيس آفاق سطحية ولعل اختيار آسال للعزلة وهجرة عشيرته تحقيق لهذا المسعى وحتى لما قرر الاستنجاد بحي بن يقظان لإقناعها باختياره فشل وعاد لطريق التأمل والتفكر.

حكاية حي بن يقظان ترسم في مسارها ايضا رحلة انتقال الانسان من الطبيعة الى الثقافة تمظهرت في اكتساب معارف و مكتسبات و تصورات (الطبخ، اللباس..) /مسار الطفل يجسد رمزيا تجسيدا او تحققا من تحققات عملية الانتقال وغرابة هذا التحقق او على الاصح فرادته انه في حيز كبير من زمن وبناء الحكاية يتم بدون لغة بل لا نلمس استعجالا او ملحاحية لذلك. فحي بن يقظان يواجه مصيره ويرتبط عاطفيا بالظبية ويستفيد من عالم الطبيعة والحيوان لتوديعها (دفنها) وبدافع الفضول العلمي يشرح جسمها ليمارس فعلا ثقافيا بل علميا بامتياز. لتبدأ رحلة أخرى في مواجهة المصير دون تردد ولا خوف وهكذا راكم معارفه المادية والفيزيائية دون أن يتخلى عن طبيعته وفطرته التأملية والتفكرية بما في ذلك التغذية الروحية.

2-1-2- سياق الاجتماع واللغة

وضعية أخرى، في جزيرة مجاورة او قل في مكان او حتى عالم آخر، مجتمع يعيش حياة عادية تحت امرة سلطان(سلامان)؛ حياتهم مقتصرة على ظواهر الاشياء دون السؤال عن عمقها، وبينما كان سلامان محبا للاجتماع والكلام وبساطة الحياة كان صديقه (آسال) ميالا للتفكير والعزلة ولما كانت بنية المجتمع لا تتيح له ممارسة تأملاته، ولما كانت العزلة مرفوضة أو على الأقل محط غرابة ونشاز انتقل إلى مملكة حي بن يقضان طلبا للخلوة والتفكير بعيدا عن اللغو وسطحية الحياة.

2-2- محاولة إعادة تركيب

2-2-1- سياقان متجاوران و رحلة البحث عن المعنى "الفكر يتفاعل مع الطبيعة و اللغة عقد زواج.

بعد تفاعل الفكر مع الطبيعة في تجربة حي بن يقظان وعندما لم تستجب بنية مجتمع (آسال) لحاجياته الفكرية يقرر الانعزال بحثا عن تجربة أخرى، معرفة اخرى، حقيقة أخرى. الصمت في مملكة حي بن يقظان كان جذابا وساحرا وقد ساهم ذلك في هجرة آسال، نعم هذا الاخير كان يريد ان ينعزل لكنه كان متحمسا لمعرفة حي أيضا وربما أساسا بحثا عن حياة أخرى واجتماع آخر.

حل آسال في العالم الجديد، ارتاد فضاء حي بن يقظان راوده، التمسه ثم اقتنصه ذات لحظة رغم حرص الاول على العزلة والتفكير لتطوير ذاته والرقي بها. التواصل بينهما كان غنيا بالدلالات والمعاني لكنه ينفلت للكثير من تقنيات التواصل، حقا تحدثنا الاحصائيات ان التواصل اللفظي لا يمثل الا نسبة ضئيلة لكن غيابه في سياق ثقافي معين فهو موضوع غرابة واستشكال والأمر في جميع الأحوال تأكيد لتعدد واختلاف الأنساق الدالة واللغة هاهنا ليست شرطا للتواصل مع التحفظ الواجب بالنظر لطبيعة الجنس الأدبي وخصوصياته البلاغية والتخييلية، وإن كان العمق الفلسفي الحاضر بقوة يجعلنا نصر على استشكال الموضوع ومتابعة الفرضيات.

بعد تفاعل و تمارين تعبيرية تواصلية متنوعة و متعددة الطبيعة والاشكال.. يتوصل آسال لتعليم حي بن يقظان اللغة فيتعلمها بسرعة وهذا مدعاة للتساؤل من جهة السياق المحلي لكن سياق تعلم اللغة العام وعلاقة ذلك بفطرة الانسان على ذلك تبدد السؤال، نعم استعداد آسال ملحوظ وذو قيمة دلالية لكن سؤالا آخر ها هنا يحاصرنا: هل كان حي سيتعلم اللغة لولا دخول آسال محيطه ونسقه الثقافي؟

هي أسئلة لا يتسع المجال لجردها ولا تكفي الحكاية لوحدها للإجابة عنها؟ أفترض ان منهجا واحدا وخالصا غير قادر على الاحاطة بذلك خاصة أن طبيعة النص إشكالية فصاحبها يسميها قصة وهي في تقديرنا تستجيب لمواصفات الحكاية ويسمها بعض النقاد بالرسالة وجميع الذين تناولوا هذا النص بالدراسة فمهما اختلفوا في طبيعتها ووظيفتها فهم يتفقون على عمقها الفلسفي.

2-2-2- تجربة اقناع بخطاب ثقافي و استحالة مرتبطة باختلاف السياقات الثقافية.

هي لحظة أساسية لتجريب تحقق ممكن لزواج (الفكر/اللغة):اتفاق حي وآسال بطلب من هذا الاخير على الذهاب إلى المجتمع المجاور لإقناع ساكنته بالمشروع الثقافي و القيمي المتفق عليه، كانت تجربة شاقة و مريرة لكن الامر الذي تأكد هو انهما فشلا في تحقيق ذلك: وجود مجتمع

و وحدة اللغة لم يكونا كافيين، يبدو ان النسق او بنية المجتمع عصيين على التغيير و خاصة عندما ينتج النموذج خارجهما، كما أن طبيعة الاجتماع ضمن مجتمع أو جماعة تجعل هذه الأخيرة ممانعة اتجاه التغيير عموما وهو حال الأنساق عموما بما فيها اللغوية فهي عصية على التكسير وهذا ما يفسر استمرارية السانكرونيات زمنيا وبطئ أثر الدياكرونيات وحاجتها لعناصر غير لغوية وجوهرها ثقافي خاصة مع أمبرطو إيكو Umberto Eco هذا الأخير يتحدث عن الوظائف السيميائية لمأسسة العلامة ولتبسيط ذلك يورد مثال الفن التشكيلي الانطباعي الذي رفضه المتلقي في بداياته بدعوى أنه غير مفهوم أو أنه لا معنى له والحال بالنسبة لأمبرطو إيكو أن المتلقي لا يتوفر على نموذج دلالي للتلقي وأن مأسسة هذا النموذج تحتاج لمأسسة السنن واقتراح تعاقد جديد [15]. وفي جواب على وضعية أراها مشابهة لوضعية الإقناع بمشروع حي بن يقظان وآسال يقول أمبرطو إيكو: "العالم السيميائي لا يعرف لا أبطالا ولا أنبياء.. حتى الأنبياء يجب قبولهم من قبل المجتمع كي نصدق ذلك وإلا فإنهم مزيفون"[16]

2-3- جدلية الفكر واللغة

2-3-1- الفكر ملاذ السؤال و الاختلاف، و الطبيعة فضاء خصب للتفكر.

أن تطرح سؤالا فأنت تفكر ولأن التفكير عصي على التنميط فالاختلاف هو الأصل وهو وارد ورود اللغات والثقافات على تنوعها واختلافها وفي غياب هوامش لممارسة الاختلاف نضطر احيانا للانزواء او العزلة. والثقافة بأبعادها الدينية والوضعية زاخرة بالشواهد والحكاية شاهد منها. فابن طفيل وغيره لم يجدوا ضالتهم فيما ساد من فكر ظاهري وانتصروا للعقل في العلوم وانتهى بهم الأمر في طريق التصوف والكشف مما لم تدركه الكثير من العقول حتى أن الكثير منهم اختاروا التعبير بلغة تليق بشواهق الأفكار التي تعجز لغة التقرير والتصريح عن الإمساك بها مما جعلهم يعيشون غربة في أوطانهم ومحيطهم بل عاشوا محنا وإكراهات لم تمنعهم من حب الحكمة وطرق أبواب العلم والأدب.

تطورت العادات واتخذت أشكالا ثقافية متنوعة وظلت الطبيعة مصدر إلهام وهي في الحكاية البداية والنهاية على الاقل في البناء السردي. تبقى الطبيعة ملاذ المتأمل المتفكر فهي ملاذ الفكر الحر والعودة إليها بقدر ما هي عودة للأصل فهي حمالة أفكار وتجديد للرؤى والقيم وما أشبه ذلك بتلك العودة الأبدية للتحرر من قيود الواقع الذي يصبح خانقا أحيانا فنحتاج لهواء آخر أكثر نقاء ينقذنا من آلة تريد أن تجعل الناس نسخا مطابقة لأصل مفقود ربما ساعدتهم العودة لاسترجاع عقل خالص وحر قادر على الابداع وفي ذلك خلاص للذات وفائدة للإنسان والمجتمع.

2-3-2- اللغة والفكر في وضع تكاملي.

تجربة حي بن يقظان وكذا تجربة آسال هي تجارب فردية لكنها تجريد وترميز لتجربة جماعية تنتصر لجدلية العلاقة (فكر / لغة) فليس عبثا تعلم حي اللغة ولا عبثا اختار آسال البحث عن وضعية تفكرية أخرى فهو لقاء وجودي يعبر عن علاقة تكاملية بحيث لا ينوب أحدهما عن الاخر. فحي بن يقظان لم يختر مصيره لحدود تواجده بالجزيرة لكنه جعل من ذلك سبيلا للتفكير والبحث عن الحكمة والمعرفة في أبعادها العلمية الروحية. أما أسال فهو أيضا لم يختر وجوده في وضعيته الأولى ضمن جماعة لم تستجب لحاجياته في التفكير فاختار الهجرة والعزلة ليلتحق بنادي عشاق الخلوة والتأمل فكان له ذلك في مملكة حي بن يقظان الذي دخلها غريبا فأصبحت عالمه المفضل. أسال الذي وجد إجابة لأسئلته لم يفقد الأمل في تغيير محيطه الأول وعاد إليه مسنودا بحي بن يقظان وهما يحملان مشروعا وخطابا ثقافيا على أمل إقناع ذويه لكنهما لم يجدا الاستقبال اللازم في مجتمع له قوى إشراطه الاجتماعي فلم يجدا بدا من العودة للطبيعة والتفكير انتصار لاختيارهما ونحن لا نعرف حسب سردية ابن طفيل إذا ما كانا قد فقدا الأمل في العودة.

3-خلاصات للتفكير

- الثقافة والفكر ممكنين خارج اللغة بمعناها اللفظي إنهما انتاج تفاعل مع الطبيعة وتلك حالة حي بن يقظان وهي حالة تغير اللغة في العلاقة مع البيئة. كما أن الأنساق الثقافية ليست بالضرورة لسانية، وهذه من خلاصات الحكاية وهي أيضا من إنجازات الدرس السيميائي ولعل المقاربة السيميولسانية في دمجها للساني والسيميائي إحدى العلامات على ذلك.

- اللغة تحتاج الى فردين أو أكثر وإن ذلك من طبيعة اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية وتلك خلاصة علاقة حالة حي بن يقظان باللغة فعندما كان لوحده في عالم الطبيعة لم يكن محتاجا لذلك وكان يتوسل بلغات أو أنساق سيميائية غير لغوية وكانت قادرة على صناعة حياة وثقافة بمعناها المادي واللامادي والروحي.

- اللغة حمالة قيم وأفكار وذهنيات هو حال حي عندما انتقل الى الجزيرة المجاورة وهو حال اللغة عموما.

- للمجتمع بنيته أو بنياته ووظائفه وبالتالي صعوبة اختراقه وتغييره أو على الأقل إقناعه بمشروع ثقافي مختلف مهما كانت جديته وأهميته وهو حال المجتمع الموازي للحياة في الجزيرة (قوى الاشراط الاجتماعي) وهو حال اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية فالفرد لا ينتج اللغة بمعناها اللفظي ولا يغير اللغة اللهم في حدود ضيقة وهو يحتاج لتفاعل مع الآخرين.

- حاجة الفكر للغة لينتشر وينتقل وهو حال الثقافة واللغة بالمعنى اللفظي وهي ليست شرطا للتفكير على الاقل في حكاية حي بن يقظان فأكيد أن بطل الحكاية توسل التفكير باعتماد لغات غير لفظية وغيرها كثير كلغة الصم البكم وموورس العالمية وغيرهما.

- حاجة الفكر للغة لتنشيط التفكير وتقاسمه وحاجة اللغة للفكر باعتبارها منتوجا فكريا والفكر يطور اللغة لأنه يسائلها ويطورها ولعل فلسفة اللغة والمنعطف اللغوي دليل على ذلك بحيث أفادت فلسفة اللغة الدرس اللساني والفلسفة على السواء.

- اللغة تعطي معنى و شكلا للفكر والفكر يطوع اللغة ويجعلها تتطور بحيث تلج عوالم أخرى وتصبح مطالبة بتسمية موجودات أخرى واستعمال أساليب للتعبير عن محتويات جديدة ولعل التطور التكنولوجي والرقمي الذي عرفه العالم وفي قلبه الوسائط الاجتماعية جعل اللغة تركب هذا المتاح لمواكبة هذا التطور وإلا أصبحت محصورة الاستعمال في المدارس والجامعات وسجينة المظهر المكتوب والخطي وبفضل هذا التفاعل والتكامل عرفنا ظهور محتويات جديدة وأجناس جديدة وخطابات جديدة كخطاب الصورة والخطاب الرقمي وغيرها من التعبيرات التي تشهد على دخولنا عصرا جديدا بأنماط تفكير جديدة ومحتويات جديدة وأدوات وأشكال تعبير جديدة.

- الفكر واللغة مرتبطان وجوديا إنهما في وضع تكاملي بحيث لا يعوض أحدهما الآخر ولعل في ثنائية المحتوى والعبارة التي تحدث عنها لوي هيمسلف L Hjelmslev مدخلا لتأكيد وضعي الاختلاف والتكامل.

الهوامش:

[1] ما عاد السجال كما كان حول سؤال الأسبقية والتأسيس في العلاقة بين اللغة والتفكير أو الفكر

[2] Ferdinand De Saussure, cours de linguistique générale , Payot 1971.p33

[3] دروس في التداوليات،كلية الآداب، جامعة مولاي اسماعيل 2020

[4] هو عنوان الترجمة الأكثر تداولا وهناك ترجمات أخرى بطبيعة الحال. le philosophe sans maître

الترجمة من إنجاز إيتيان مارك كاترومير وتقديم جون بابتيست بروني

Traduit par Etienne Marc quatremère, préface: Jean-Baptiste Brenet, Rivages poche,2021.

[5] Frédéric Manzini, philosophie magazine: Livre du jour,
https://www.philomag.com/articles/le-philosophe-sans-maitre-dibn-tufayl

نشر بتاريخ 7 يوليوز 2021.

[6] محمود أمين العالم، مواقف نقدية من التراث، القاهرة: دار المستقبل العربي، د.ت، ص 194

[7] Une analyse sémiolinguistique du discours
revue Langages n° 117, Larousse, Paris, mars, 1995.

[8] Roland Barthes, élément de sémiologie , recherches en sémiologie , communication 4 ,1964.P99.

[9] نفس المرجع ص 131.

[10] Ainsi parlait Zarathoustra, traduction Maurice Betz, Gallimard, 1947.

[11]ابن تيمية، درء تعارض العقل و النقل،الجزء الأول، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، ص 11..

[12] ابن طفيل، حي بن يقظان، تحقيق وتعليق: أحمد أمين، تقديم حسن حنفي، منشورات دار الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر 2014

[13] المرجع نفسه

[14] هناك من يعتبر أنه من ايحاءات النص مناقشة قضايا عصره وأهمها سؤالي الأخلاق والنشأة والتطور وهي قضايا إشكالية كبرى كانت ومازالت تقسم الثقافات والحضارات.

[15] Eco Umberto. In: Communications, 15, 1970. L'analyse des images. P. 11

[16] Eco Umberto. In: Communications, 29, 1978. Image(s) et culture(s) sous la direction de Christian Metz et Michel Rio,p186